«إيران الخمينية» من تجربة خاتمي إلى عهد نجاد الثاني

فشل التوفيق بين الثيوقراطية والديموقراطية

يوسف بزّي

في العام ١٩٩٧ انتخب الشعب الإيراني رئيسه على الضد من رغبة المرشد الأعلى علي خامنئي وتوصيته، فاختار محمد خاتمي الإصلاحي بدلاً من ناطق نوري المحافظ.

خاتمي، وزير الثقافة السابق المحبط، والذي استقال من منصبه أمام الرئيس هاشمي رفسنجاني عام ١٩٩٢، وصل الى الرئاسة تتويجاً لذروة المد الإصلاحي، الذي أخذ من مبادئ الثورة الإسلامية محاولتها مع «مؤسس الجمهورية» الإمام الخميني إجراء «مصالحة تاريخية» بين الدين والدولة.

جاءت الخاتمية كاستجابة لمرحلة ما بعد غياب الخميني، وكمحاولة لحل أزمة المشروعية في النظام، أزمة القراءات التي تعددت، بعد وفاة المؤسس، لنظرية «ولاية الفقيه»، فالخاتمية هي ضمناً محاولة لـ«التوفيق» ما بين التشريع الإسلامي (الشيعي) ونظام الإدارة الديموقراطية.

لذلك رعت الخاتمية، بوجل واستحياء دائمين، المراجعات النقدية لتجربة عقدين من عمر الجمهورية، وشجعت الصحافة المتعددة والنشاط الثقافي ولبعض مظاهر المجتمع المدني، فهي أيضاً حاولت القيام بـ«مصالحة تاريخية» اخرى، هي هذه المرة بين الدين والديموقراطية. فخاتمي هو القائل لطلبة جامعة طهران في الذكرى السنوية الأولى لتوليه الرئاسة «إذا كانت الليبرالية ليست مذهبنا، فإن الحريات التي تتضمنها أمر مطلوب كما انه لا يجوز الوقوع في شراك الفاشية هروباً من الليبرالية».

على ذلك، ظل الرئيس خاتمي يركض هارباً من الاحتمالين: الليبرالية والفاشية، من غير راحة أو مستقر.. ولا توفيق. فمع بداية عهد خاتمي، أخذ المحافظون المتشددون المهندس غلام حسين كرباستشي عمدة مدينة طهران الى المحكمة بتهم فساد وسوء إدارة. كان كرباستشي أهم شخصية تنفيذية في طاقم خاتمي، بل وتعزى اليه الكثير من النجاحات التي حققها الإصلاحيون في الانتخابات.

بدت هذه الحادثة ضربة مهينة للرئيس الجديد الذي فاز بتأييد كاسح من الناخبين. وبدا ان السلطة الفعلية هي في مكان آخر، خارج الرئاسة بالتأكيد. ونجح المحافظون في ضربتهم الأولى. أفهموا الرئيس ان السلطة القضائية والقوات المسلحة والميليشيا والقرار السياسي والإدارة العامة هي بين أيدي من ليسوا منتخبين، هي ليست في أيدي عمدة مدن أو نواب أو وزراء أو رؤساء جمهورية. كانت سلطة الوصاية (كما نفهمها نحن اللبنانيين) هي التي تحيي وتميت وتدين وتقرر. وفهم الجميع في إيران ذلك بعد محاكمة كرباستشي وسجنه. بل وفهموه أكثر مع بدء حملة إغلاق الصحف التي سمح خاتمي لها بالصدور.

في خريف العام ١٩٩٨، أي بعد أقل من سنة على توليه الرئاسة، ومواجهته لكثير من الصفعات السياسية المتوالية من المحافظين، تلقى خاتمي ضربة إضافية عبر اغتيال زعيم حزب الشعب الإيراني داريوش فروهر وزوجته.

ثم كرت سبحة اغتيالات طاولت مثقفين ومفكرين وصحافيين ونشطاء، جميعهم من الإصلاحيين. ووصل سكين القتل الى رقبة خاتمي نفسه مع محاولة اغتيال المهندس سعيد حجاريان، أقرب المقربين للرئيس و«مهندس» أفكاره الإصلاحية، فيما عمد محمد علي الابطحي، مستشار خاتمي، الى النزول في بيروت، في تلك الفترة، مرات عدة.. ابتعاداً عن الأخطار.

سعيد حجاريان الذي أصيب بالشلل اثر محاولة اغتياله كان أول المعتقلين في الأحداث الأخيرة، إذ هو ما زال «الهدف» المفضل عند المتشددين.

في عهد خاتمي أيضاً، وبعد موجة إغلاق الصحف والاغتيالات، تعرض وزير الداخلية الإصلاحي عبدالله نوري ووزير الثقافة عطاء الله مهاجراني للاعتداء بالضرب أمام الملأ في أثناء صلاة الجمعة. وقامت قوات من ميليشيا الباسدران عام ١٩٩٩ بالهجوم والاعتداء على جامعة طهران وطلبتها، أي على معقل «الخاتمية». وتسبب الهجوم بأول «انتفاضة» تشهدها إيران منذ الثورة. انتفاضة طلابية دامت ستة أيام، لم تفعل سوى استعادة بعض كرامة الإصلاحيين، من غير اقتصاص من الميليشيا وداعميها.

انقضى عهد خاتمي الى تحقيق مفارقة كبرى: بروز حاسم لولاية الفقيه وقوة المتشددين الدينيين والعسكريتاريين واستحواذهما على السلطة، من جهة، وبروز مجتمع مدني حيوي (ملاعب كرة القدم، السينما، الصحافة، الطلاب..) من جهة ثانية. هكذا فشلت «المصالحة التاريخية» في مستوييها: بين الدين والدولة، وبين الدين والديموقراطية. وهكذا بدأت القطيعة بين المجتمع والسلطة.

استقرت إيران على «قوة السلطة» مجسدة بالتوأم بين المرشد الأعلى علي خامنئي ومريده الرئيس أحمدي نجاد. وانسحب الإصلاحيون من الواجهة، الى أن أتت الانتخابات الرئاسية الأخيرة، حين ظن الإصلاحيون ان تشكيل السلطة ما زال يستند الى مبدأ انبثاقها من الشعب، أي من صناديق الاقتراع. لم ييأسوا من التجربة الخاتمية المريرة. لم ييأسوا من وهم التوفيق ما بين «الإرادة الالهية» و«الإرادة الشعبية». هكذا توجه الإصلاحيون الى الاقتراع فيما توجه المحافظون الى «التدبير» الالهي. وما بين التوجهين مسافة هي عينها الفاصلة ما بين الأرض والسماء.

في العام ١٩٩٨ كانت الخاتمية تواجه محاكمة كرباستشي، تواجه قوة ضارية تحاصرها ميليشياوياً وأمنياً ودينياً وقضائياً وسياسياً.. وكانت تجد تعويضها ورمزيتها في تلك اللحظة بالذات في المنتخب الوطني الإيراني لكرة القدم، الذي وصل الى مونديال فرنسا لكي «يلعب» مع المنتخب الأميركي. وحينها ظهرت لنا للمرة الأولى صورة «الجمهور» الإيراني المغايرة لصور الحشود الطقوسية المعتادة. كانت صورة شبابية، أنثوية، ملونة ومقبلة على العصر والموضة والبهجة واللهو. كانت الملاعب تحمل الينا مشهد جمال الشباب الإيراني الراكض نحو الحداثة والخفة.

في العام ٢٠٠٩، عادت الينا صور الشباب الإيراني من شوارع طهران وهو يتظاهر تحت شعار «أين صوتي؟» غير مدرك أن انقلاباً (قد يكون نهائياً) حسم ازدواجية مصدر السلطة في إيران لصالح «حزب ولاية الفقيه». انقلاب من النظام على النظام.. وضد المجتمع. نزل إيرانيو الديموقراطية لمواجهة ما أسموه «الديكتاتور» في تظاهرات سلمية مدنية حاشدة آملين بالابقاء على «الجمهورية الخمينية» وفق تلك العقيدة التي أرستها الخاتمية نفسها.

لم يدرك الإصلاحيون بعد انهم خسروا الجمهورية العتيدة وإن الانقلاب تم بنجاح مذهل: السيطرة على الإعلام، القوى الأمنية، الجيش، الحرس الثوري، الباسيج (الميليشيا)، مؤسسة مصلحة تشخيص النظام، مجلس الشورى، الوزارات، الرئاسة..الخ. على هذا المنوال وجد المتظاهرون المدنيون أنفسهم معزولين من غير سند سياسي تقريباً. حتى الانشقاق في المؤسسة الدينية ومجتمع رجال الدين لم يترجم نفوذاً سياسياً ولا قوة ضغط كافية، فيما مجتمع «البازار» الذي أطاح بتحالفه مع رجال الدين بالشاه، لم يعد تلك القوة الفاعلة بعد ٣٠ عاماً من الحكم «الثوري».

«مواطنو» الديموقراطية وشبان المجتمع المدني ومثقفو الحداثة والليبرالية (المحتشمة) نجحوا في تأليف «رأي عام» ترجم نفسه بالتظاهرات السلمية. لكن هذه التظاهرات التي اجتاحت ساحات وشوارع العاصمة الإيرانية كانت تطلب «السياسة»، فجاء الرد عليها رصاصاً وقمعاً أمنياً وحشياً. لم يدرك الإصلاحيون ان ولاية الفقيه و«ديكتاتورها»، قد صادرا السياسة كلها من غير شريك.

نجح الانقلابيون على ما يبدو في الأيام الأخيرة في عزل «نواة» الاحتجاج. وحدث ذلك في السيطرة على الميادين العامة بالقوة، بحيث استحالت التجمعات الجماهيرية الكبرى، ثم نجح الباسدران والباسيج والشرطة في نزع الطابع السلمي على حركات الاحتجاج وصبغها بالعنف والدم، بحيث لا يمكن لأغلبية المواطنين المسالمين المجازفة بأرواحهم والنزول الى الشوارع لمواجهة جيش الدراجات النارية، المدججة بالسلاح والرجال القساة البالغي العنف والبطش.

نجح القمع أيضاً في تقنين تدفق الصور وفيض الإعلام ومحاصرته قدر الإمكان، وتغلب تكتيك القمع المتبع من القوى الأمنية، التي تعمد على ما يبدو لعملية قنص مميتة واحدة في كل تجمع احتجاجي. فلا إطلاق نار عشوائي يسبب مذبحة درامية، ولا اكتفاء ببخاخ فلفل على العيون ولا مجرد ضرب بالعصي والهراوات ولا استعمال الغاز المسيّل للدموع فحسب، بل قتل متظاهر واحد فقط في كل تجمع أو تظاهرة تنبثق هنا أو هناك. هذا التكتيك فعل مفعوله الناجح في القمع وتعميم الخوف. اما النجاح الأكبر فتمثل في إخفاق القادة الإصلاحيين بوضع «برنامج» أو سيناريو كرة الثلج. فشل القادة الإصلاحيون في السيطرة على الزمن وتدفقه، فلم يتبعوا تكتيك الأفعال المتوالية والضربات المتدحرجة. كان خيالهم فقيراً في ابتكار وسائل جديدة لـ«تنمية» الاحتجاج وتوسيعه وإدامته... فخسروا عنصري المبادرة والمفاجأة.

اقتصرت قدرة الاحتجاج، باستخدامها لتكنولوجيا الصورة ووسائلها المتعددة (الانترنت، الكاميرا، الهاتف المحمول)، على توجيه خطابها الى «الرأي العام العالمي».. وهذا بالنسبة للسلطة في إيران لا يسبب لها رفة جفن، طالما ان الرأي العام العالمي هو صنيعة «الاستكبار» و«الشيطان الأكبر» (أميركا) و«الشيطان الأصغر» (إسرائيل وبريطانيا وإذاعة الـ بي.بي.سي).

تروي الأخبار الآتية من طهران أن عائلة أحد المقتولين في التظاهرات واجهتها القوى الأمنية بطلب دفع ثلاثة آلاف دولار أميركي مقابل تسليمها جثة ابنها. المبلغ هو ثمن الرصاصة التي قتلت الشاب.

هذا الإجراء اتبعه صدام حسين مع عائلات الذين يتم إعدامهم في العراق، كجزء من إجراءات معاقبة المجتمع كل يوم. حيث السلطة تصبح مجرد آلة عقاب في كل دقيقة. وعلى الأرجح فإن الإيرانيين منذ حزيران ٢٠٠٩ سيبدأون العيش في ظل هذه السلطة لمدة مديدة.

العقاب الأخير أتى الى ملاعب كرة القدم (حيث بدأت تباشير الخاتمية) فالخبر هو نقلاً عن صحيفة «إيران» الموالية للنظام، «منع أربعة لاعبين من اللعب مدى الحياة، لإعلانهم تأييدهم المرشح الرئاسي مير حسين موسوي».

هكذا أسدل الستار على «الإصلاحيين» في إيران. الشابة نِدا مضرجة بدمائها، أساتذة الجامعات في المعتقل، القادة في الإقامة الجبرية. المثقفون باتوا في المنفى، لاعبو كرة القدم بلا لعب.

انتهى وهم «الإصلاح» ولا نعرف متى يبدأ حلم «التغيير».

زهرة راهناورد .. نجمة الحركة الخضراء في إيران

نجم والي

كثيرة هي الصور التي شاهدناها على شاشات التلفزيون، صور كثيرة طافت حول العالم، منذ إنطلاق المسيرات الإحتجاجية في شوارع طهران وفي مدن إيرانية أخرى. لكن صورة واحدة، كانت تركت بصماتها ولفتت الأنظار إليها، ليس لأنها سجلت سابقة لم تشهدها إيران منذ ثلاثين عاماً، وهو عمر الجمهورية الإسلامية، بل لأنها وحدها، وبكل ما حوته من رمز، شكلت علامة فارقة حولت صيف إيران إلى ربيع أخضر. ومن يشك بذلك، عليه فقط أن ينظر للصورة تلك التي طافت أكثر من غيرها حول العالم: إنها صورة زعيم المعارضة الإيرانية والرئيس الشرعي «المفترض» لإيران مير حسين موسوي، وهو يقف وسط حشد المتظاهرين بصورة واضحة على سقف سيارة - يلوح وفي يده مايكروفون، بينما وقفت إلى جانبه إمرأة بعباءة سوداء وغطاء رأس ملون، تتطلع في وجوه الناس بإنتباه وهي تمسك وردة حمراء أمام شفتيها.

المرأة تلك ليست إلا زوجته، زهرة راهناورد، التي، على عادتها، وكما فعلت دائماً في الأسابيع الأخيرة، كانت حاضرة أيضاً في التظاهرة المليونية التي إحتشدت في ساحة الحرية بطهران في الأسبوع الماضي. ولمن لا يعرف زهرة راهناورد عليه أن يعرف، أن المرأة التي بدت بكل حيويتها أمام حشود المتظاهرين، هي رسامة ونحاتة في الأصل، فضلاً عن أنها تحمل لقب دكتوراه في السياسة، وهي مثل بقية ملايين النساء المصوتات في الإنتخابات الأخيرة، كانت وما تزال النجمة الحقيقية للـ«الحركة الخضراء» التي هبت في شوارع إيران تتحدى الدكتاتورية والطغيان المتمثل بالسلطة الحاكمة اليوم في إيران وبممثليها الرئيسين: أحمد نجادي وآية الله خامنئي.

وما يلفت النظر في المرأة هذه، أن الطريقة التي تتحدث فيها أمام حشود المتظاهرين، وقبلها في مهرجانات الحملات الإنتخابية لزوجها، لم يجرؤ حتى زوجها الجهر بمثلها، بسبب كل ما حوته من جرأة وغضب. وذلك ما جعل الصحافة العالمية ومحطات التلفزيون تنقل جملها مثل علامة فارقة لما يحدث في إيران اليوم، ليس لخروج ملايين الناس إلى الشوارع تعبيراً عن رفضهم للتزوير والخداع وحسب، بل للرغبة القوية عند أغلبية الإيرانيين بالتغيير، وخصوصاً عند ملايين النساء، اللواتي ضقن بحكم الملالي ووصاية شرطة صيانة الأخلاق. «إنها الوصاية الأكثر سوءاً وقذارة على النساء»، قالت زهرة راهناورد في إحدى الحملات الإنتخابية تعبيراً عن رفضها للممارسات اليومية التي يقوم بها رجال شرطة حفظ الأخلاق ضد الملابس «غير الإسلامية». ذلك هو أحد خطاباتها التي ظلت راسخة في الذهن، مثلما عندما هتفت قبل أيام أمام حشود المتظاهرين قائلة: «النساء في إيران تُذلّ بشكل منتظم ويُعاملن كأنهن مواطنات من الدرجة الثانية»، كلمات قوية جعلت جموع المتظاهرين يصفقون لها بحماس ولوقت طويل، قبل أن تضيف وهي تصرخ بصوتها العالي: «أنتم هنا، لأن صبركم نفد من حكم الديكتاتور. أنتم هنا، لأنكم تحلمون بإيران حرة ومسالمة في علاقاتها مع بقية العالم»، من كان يعتقد، أن كلمات جريئة مثل هذه ستُسمع في شوارع طهران! ليس ذلك وحسب. إنها تتساءل أيضاً، «لماذا لم يسمح مجلس صيانة الدستور لأية إمرأة بترشيح نفسها لمنصب الرئاسة؟» ولا حاجة لها أن تقدم جواباً، لأن المتظاهرين سبقوها بالإجابة، بتصفيقهم العالي المتواصل، وبجملتهم التي رددوها أمامها في كل المرات، وقبل أن تنتهي من خطاباتها: «نحن نحبك راهناورد».

كما هي الحال مسبقاً في خلال حملات موسوي الإنتخابية، حدث الأمر خلال التظاهرة المليونية الكبيرة الخضراء في الأسبوع الماضي. من غير المهم، إذا كان الناس المتظاهرون شباناً أو شيوخاً، نساء تلبس الحجاب التقليدي أو بغطاء الرأس على الموضة الحديثة زائداً نظارة شمسية سوداء ماركة شانيل. النساء في المقام الأول يأملن بنجاح زعيم الحركة الإصلاحية مير حسين موسوي والمتحدثة الجريئة «سيدة إيران الأولى».

صحيح أن النساء الإيرانيات لعبن دوراً مركزياً في إسقاط الشاه في شباط / فبراير ١٩٧٩، لكنهن، وبالرغم من دورهن ذاك، لم يحصلن على المساواة التي حلمن بها ولا على حصة حقيقية في تقاسم السلطة مع الرجال في المجتمع الإيراني. كل ما حصلن عليه، ورغم التضحيات التي قدّمنها، وبالرغم من سقوط عدد كبير منهن ضحايا نيران القوات الحكومية، هو حفنة من المقاعد في البرلمان الإيراني وعلى حقيبتين وزاريتين في الحكومة ليس إلا، وعلى طوال الثلاثين سنة التي مرت من عمر الجمهورية الإسلامية!

إنها مفارقة أيضاً، خصوصاً إذا ما عرفنا أن إيران تحتوي، بين بلدان الشرق الأوسط، على أكبر نسبة من النساء المتعلمات. ٦٠ ٪ بالمئة من الطلاب في إيران هن من الإناث، ليس ذلك وحسب، بل أن نسبة كبيرة منهن يحملن مؤهلات عالية، لكن رغم تلك المؤهلات، ورغم المستوى التعليمي الذين وصلن إليه، لا تملك النساء في إيران فرصة بالصعود الإجتماعي أو الفرصة لإحتلال مواقع عالية في الدولة. وإذا كان يشكل ظهور مرشح سياسي مع زوجته في الحملات الإنتخابية في الغرب ظاهرة إعتيادية بالنسبة للناس، فإن حدوث أمر مشابه في الشرق الأوسط وفي المجتمعات الإسلامية المحافظة، يدخل في باب الفانطازيا! إيران ليست الإستثناء، وهذا ما جعل زهرة راهناورد الأكاديمية البالغة من العمر ٦٤ عاماً، تطأ أرضاً «محرمة» جديدة، بل هذا ما جعل صورتها تطوف حول العالم، زائداً تناقل كلماتها الجريئة، في كل ما حوته من تحدّ لحكم الملالي!

«موسوي هو جيد بالتعامل مع زوجته وهذا أمر مهم»، قالت إحدى المتظاهرات الشابات لمراسل المحطة التلفزيونية البريطانية البي بي سي. والمتحدثة ذاتها، تشارك «السيدة الأولى» في ما تقوله، فهي الأخرى تحلم بدراسة القانون، لكي تحتل الموقع الإجتماعي الذي يليق بها، وليس كما يريده لها شرطة حفظ الأخلاق. المتحدثة تلك التي في بداية العشرين من عمرها، لم تكن الوحيدة التي حملت البوستر الإنتخابي ذاك، الذي يُظهر زهرة راهناورد وزوجها مير حسين موسوي متشابكي الأيدي. ملايين الشباب حملوا البوستر ذلك في مسيراتهم الاحتجاجية، حملوه على صدورهم مثل كنز غير قابل للتعويض. «لم أر ذلك عند اي سياسي من قبل ابداً»، قالت الفتاة الشابة ذاتها، وهي متأكدة أن السياسي الإصلاحي المعارض، «يمسك يدها بحب وإحترام وليس لكي يقول، انظروا، إنها ملكي!»

في المعركة الإنتخابية التي قادها زوجها كانت هي التي تضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بالسياسة النسوية، وفي كل خطاباتها، لم تترك مناسبة إلا وأكدت فيها، أن في حالة إنتخاب زوجها، تستطيع كل إمرأة أن تقرر بنفسها، إذا كان عليها أن تضع غطاء على رأسها أم لا. وأن زوجها، عندما يصبح رئيساً، سيُسمي عدداً من الوزيرات والسفيرات. ليس ذلك وحسب، بل أنه في حالة نجاحه في الإنتخابات، سيطلق سراح كل المناضلات في سبيل حقوق النساء اللواتي يقبعن حتى اليوم في سجون الجمهورية الإسلامية.

«زهرة راهنورد هي أملنا»، هذا ما قالته العديد من المتظاهرات اللواتي خرجن إلى شوارع إيران ولم ترهبهن عصا واسلحة حرس الثورة والباسيج المدججين ليس بالأسلحة وحسب، بل بالحقد الأعمى والكراهية لكل ما له علاقة بالسلام والحرية والتقدم. وبالنسبة لأولئك المتظاهرات، المسلحات بحماستهن المسلحات برغبتهن بالإنعتاق من ثلاثين عاماً من الحكم الديكتاتوري والتخلف، سيفعلن كل ما في وسعهن، لكي يقفن مع «سيدة إيران الأولى»، مهما كان حجم المحنة التي ستمر بها، كما وعدت المتظاهرة الشابة. «سنواصل الإحتجاج، حتى النهاية، ولن نستسلم». حتى في تلك الجملة، حرصت المتظاهرات الشابات على إعلان ولائهن لزهرة راهنورد، لأن الجملة تلك، هي الجملة الإستراتيجية، التي لم تجف لا حنجرة الفائز الشرعي في الإنتخابات الإيرانية الأخيرة، السياسي الإصلاحي مير حسين موسوي، ولا حنجرة زوجته «سيدة إيران الأولى»، من ترديدها بصوت عال، وبإصرار!

تلك العين الناظرة إلى أبعد ما وراء الذي تراه

حسن داوود

في التعليق على الصورة الملتقطة في العشرين من حزيران الجاري ذكرت وكالة رويترز أنّها، ووكالات الإعلام الأجنبية الأخرى، تخضع لقرار مُلْزِم بعدم الخروج من المكاتب لإجراء التقارير وتسجيل الأفلام والتقاط الصور. الصورة الظاهرة مع هذه السطور مهرّبة إذن، ربما عبر التويتر الذي شاع ذكره في الأيّام الأخيَرة منفذا لتسريب ما يجري في شوارع طهران وأزقّتها وسطوح أبنيتها. وقد واكبت نشاط التويتر، المفاجئ في جدتّه وسرعته، بل واكتشافه، مقالات في صحف العالم وصفت الدور الذي يؤدّيه. لمن هم في العمر الذي مكّنهم من معايشة أيّام ثورة آيات الله في إيران، ذكّرهم التويتر بالكاسيت، تلك التي قيل عنها آنذاك إنّها وسيلة التعبئة والإتصال بين الخميني، المنتقل آنذاك لإقامته الموقّتة في باريس، وجماهيره في مدن إيران وأريافها.

ورجل الصورة لم يكن بين أولئك الذين شهدوا تلك الثورة، أو أنّه ، كما قد تدلّ صورته، كان أصغر من أن يفهم ماذا يعني ذلك الاستنفار والضجيج الهائلان اللذان كانا متفجّرين من حوله. ولا ريب أنه، في صورته هذه، يحيّر الناظر إليه في محاولته تقدير عمره. ولا يرجع ذلك فقط إلى اختفاء أكثر وجهه تحت الضمادة، والكمامة التي ارتداها لغرض التخفّي على الأغلب، بل إلى تلك النظرة المحدّقة بالعين الواحدة، الساهمة والواعدة بالانتقام في الوقت ذاته. ربّما كان أكبر قليلا من عمر الشباب النموذجي، أو ربما هو في العمر الوسط بين هؤلاء، الشباب، وأولئك الذين سبقوا الشباب إلى إنجاز ثورتهم في العام ١٩٧٩. أمّا السبب الداعي إلى تقدير عمره فمردّه إلى اتّجاه لدى المحلّلين في الصحافة يقوم على اعتبار انتفاضة حزيران هذه صراعا بين جيلين، وإن لم يفتهم ربّما أن أجيالا أخرى فصلت بينهما ما دام أنّ ثلاثين عاما توالت بين هؤلاء وأولئك. الأصحّ أن نقول إنّ رجلنا هذا ينتسب إلى واحد من تلك الأجيال التي بدأ اعتراضها، لا بدّ، منذ الأيّام الأولى للثورة. ذاك لأنّه لم يمرّ يوم في إيران كان الناس فيه متجمّعين تحت قيادة حاكميهم. الإنتخابات التي حقّق فيها محمّد خاتمي فوزه الأوّل، ثمّ فوزه الثاني، كان من أعطوا نسبة السبعين في المئة أكثر من جيل واحد. وإنّ واحدنا ليخطئ إذ يظنّ أنّ الحياة التي يقترحها رجال الدين، أو يفرضونها، ستشدّ الإيرانيين كلّهم بجاذبيّتها. كلّ من زاروا إيران رأوا بأمّ العين تعبيرات الإحتجاج المختلفة، سواء في تفلّت النساء التدريجي من الحجاب، أو في إجراء الحياة في الخفاء بعيدا من الأعين المتلصّصة لمن أعطوا تفويض حماية الأخلاق، أو في الرقابة السياسية والأمنيّة على الجامعات، طلابا وأساتذة، أو في ترك الحياة الثقافيّة للإيرانيين تجري في المنافي ويمنع وصولها إلى من ما زالوا في بلدهم لم يغادروه.

وهي حياة موازية تلك التي تجري في الخفاء ابتداء من تهريب الكتب والأفلام وصولا إلى ما يفيض عن ذلك الخفاء خارجا إلى الحدائق العامّة التي، في الليل خصوصا،

تنتشر فيها روائح الممنوعات بقوّة ما تُشمّ في الغرف المقفلة. وهي تفيض عن الخفاء أحيانا في عدم التزام سائق التاكسي جانب الحذر حين يسأل راكبي سيّارته على ماذا يريدون أن يحصلوا، ذاكرا بضاعته الممنوعة كلّها بأسمائها.

الأصح أن نقول إنها أجيال وليست جيلا واحدا، أجيال تتجدّد في مجابهة ما يبقى، بالقسر أو بقوة الإعتصام بالعقيدة، على حاله . يصعب على من كانوا أصحاب ثورة ذات يوم أن يقبلوا أن الأشياء لا تبقى على حالها، أو أن مبدأ الحياة هو التغيّر. بعض من كانوا ثوريّي إيران، وانتزعوا السلطة من الشاه، لم يصدّقوا ميل أبنائهم إلى الحياة الجارية في بلد الشيطان الأكبر، كما في بلاد الشياطين الصغار أو الأقلّ شأنا، كمثل بريطانيا وفرنسا وسواهما. قالوا لنا، نحن محاوريهم هناك في طهران، إنهم لا يعرفون كيف تصل أشرطة الفيديو، آنذاك، إلى أيدي أبنائهم وكيف يتسنّى لهم متابعة المَوضِ الجارية هناك. في ما يعتقده أحمدي نجاد ومن معه ممن يسمّون المحافظين، أو المتشدّدين، أن ما ينشدّ إليه الجيل الجديد لا يعدو أن يكون تعلقّا بالتفاهة. وهو، إذ يخطر له أن يسمّي الطرفين المتنازعين اليوم في طهران، وهذا ما أشارت إليه مقالات صحافية كثيرة، يروح يقارن بين جيل خاض حروبا وأرسى عقيدة وواجه دولا مستكبرة، وجيل لا همّ عنده إلا أن يعيش كما يحبّ ويهوى.

ذلك النظام الرافض للتغيّر لن يستطيع البقاء ما دام ّ كلّ ما يسعى إليه هو إبقاء إيران تحت سلطته. لم يعد مالكا القدرة على احتواء الإيرانيّين بتصعيد الإستعداد للحروب والمواجهات والزهو باقتراب الوصول إلى القنبلة الذريّة. «هذه، القنبلة، لا نريدها... لا نريد أن نواجه أحدا أو أن نتحدّى أحدا» قالت سميرة مخملباف، المخرجة السينمائية الشابّة، معبّرة، لا عن ما يراه أبناء جيلها فقط، بل عما يريده مثقفو إيران ومبدعوها على اختلاف أجيالهم.

طبعا يصعب على المأخوذ بالمشاهد المهرّبة، القصيرة والمجتزأة، والتي «لا يمكن الوثوق بصدقيّة بعضها»، كما ذكرت، متحسّبة، وكالات الإعلام التي توزّعها، يصعب على مشاهدها إذن أن يتنبأ بما ستؤول إليه تلك الإنتفاضة. ربّما ستتمكنّ القوّة من إسكاتها، ربما سيتمكّن مُسكتوها من طيّ صفحتها الآن والقول إن من قاموا بها مجموعة عملاء وجواسيس بدليل أن كثيرين ممن جرى اعتقالهم مشكوك بولائهم لوطنهم لأنّهم يحملون جوازات سفر أميركيّة وبريطانيّة. لكنّهم لن يجدوا إلاّ تشديد القوّة وإبقاءها متحسّبة متيقّظة، القوّة التي ستعتق هي أيضا.

ذاك لأنّ تلك الأصالة الحازمة لم تعد قادرة على أن تصنع رمزا أو أن تجدّد رموزها. مقتل ست عناصر من الباسيج، بحسب ما أورد الإعلام الإيراني، إن صحّ، فسيُنسى من لحظة ما يُستخدم في النزاع الإعلامي، أما ندا سلطاني فأيقونة باقية. ما لن يتمكن المسلحون العسكريّون، أو المسلحون المدنيون المسلّحون بالعصيّ والسواطير، بحسب ما نقل على «التويتر»، من تبديله، هو أن يكون ما جرى، وسيستمرّ جاريا ربما، هو بداية لزمن جديد. هذا ما تؤكّده تلك النظرة، المحدّقة ثابتة في ما هو أبعد من مرماها القريب.